« الرقص الكلاسيكى »

للدكتور محمد مندور

بدا لى أن أكتب عن الرقص ، وذلك أملا منى فى تقويم الأخلاق ، ولقد يلوح هذا غريباً ، فكيف تقوم الأخلاق بالحديث عن الرقص ، ومع ذلك فهذا حق ، فالرقص ونقصد به الإيقاعى والتعبيرى ، لا الرقص الشرقى طبعاً ، يورث من يزاوله من رجال ونساء قوة فى الجسم تحرر النفس من آفاتها

وقديماً حرص سقراط الشيخ على أن يتعلمه ليقلل من قبح جسمه المتبجح ، ويقوى من ضعفه ، فقال لأصدقائه وتلاميذه وقد اجتمعوا يوما بمنزل أحدهم حول غلام يعلم الرقص : « أتضحكون منى لأنى أريد برياضة جسمى أن أتعهد صحتى فأتمتع بأكل هنىء ونوم سليم ؟! أتضحكون لأنكم تعتقدون أن شيخا مثلى لن يصاحب مدربا رياضياً إلى الخلاء فيرى جسمه أمام الجماهير ، بل يقنع بمعرفة طعام كهذه التى يكتفى بها هـــذا الغلام ؟ ! أتضحكون لأنى سأتدرب فى الشتاء تحت السقف وفى الصيف تحت الظلال إذا اشتدت حرارة الشمس ؟! أم تضحكون لأننى رحت ببطن كبير إلى حد ما فأردت أن أرده إلى حجم معقول ؟! »

وفى هذا يقول شاعر الإغريق أناكريون . « عندما يرقص الشيخ لا ترى فيه عجوزاً غير شعره ، وأمارو حه فلا تزال فتية »

والرقص كما هو رياضة للجسم رياضة للروح ، وذلك لأنه يغذيها بشعورين لهما أثر عظيم فى الحياة ، وهما الشعور بالمرح ثم الشعور بالجمال . وليس من شك فى أن هذين الشعورين من أضعف المشاعر عند الشرقيين ، حتى لأحسب أن جانباً كبيراً من ضعف النفوس الذى نشكو منه يرجع إلى الحزن الذى ينزل الخراب بالقلوب ، كما أن الإحساس بمعنى الجمال ومعاييره الصادقة يكاد يكون منعدما . والنفس الحزينة لا تعرف الثقة والتفاؤل . والحس الذى لا يدرك الجمال لا يحجم عن الخسيس من الأمور .

ولو أنك قارنت بين الرقص الشرقى والرقص الغربى لأدركت الفارق بين المشاعر التى يثيرها كل منهما ، فالرقص الشرقى رقص تمرد جسمى ، حركاته زوايا لا منحنيات ، وهو إثارة للغريزة الجنسية فحسب ، وأما الرقص الغربى فإيقاع وتعبير ، وهو فى أصح أوضاعه يستمد إيقاعه من الموسيقى الشائعة فى الطبيعة ، ففيه عنصرا التموج والاستمرار . وليس يخاف أن الحياة كلها تموجات موقعة ، فالصوت والضوء والموج والريح والشجر وأوراقه ، كلها تسير أو تهتز موقعة فى موجات . والحركة دائرة مستمرة حتى فى الجماد حيث ترقص الذرات الكهربائية . والراقص أو الراقصة فى أوروبا لا يخترع حركات وإنما يكتشف حركات ، يكتشف ما هو كامن فى نظام الحياة والوجود ، وإن كان لا يقف عند الإحساس بالطبيعة بل يعدو الإحساس إلى الدرس ، ويروض نفسه على تشرب موسيقاها بالتدريب الطويل المتصل حتى يجيد فهمها فتصبح الحركة تعبيراً عن معانى النفس .

لقد أخذنا نعنى فى الشرق بتثقيف العقول ، ولست أدعى أننا قد نجحنا كل النجاح فى هذا التثقيف ، ولكننى أحسبه شيئاً يذكر إذا قارناه بتثقيف الإحساس . ولقد فطن الناس إلى أن الشىء الرائع فى تربية الإغريق القدماء كان عنايتهم بتنمية حاسة الجمال فى النفوس عن طريق رياضة الجسم ورياضة الروح ، فأفلاطون نفسه قد قصر منهج التربية فى جمهوريته على العلوم الرياضية والموسيقى والرياضة البدنية ، وبذلك يجمع بين تقويم العقل والإحساس والجسم ، ويقيم بين ثلاثتها توازنا هو عماد النفس القوية . ولقد كان الرقص جزءا هاما من رياضتهم ، وذلك سواء أكان حربياً أم فنياً ، ولقد كان المقاتلون لا يسيرون إلى القتال إلا بعد أن يثيروا فى نفوسهم الحماسة والنشوة بالرقص الموقع توقيعاً قويا ، حتى لقد قال إفلاطون بلسان سقراط : إن أكثر الناس تبجيلا للآلهة فى حلقات الرقص هم أشجعهم ضراوة على القتال فى الميادين »

والإنسانية منذ أقدم عصورها لم تعرف الرقص منفصلا عن غيره من الفنون . فمنذ الأزل والناس يجمعون بينه وبين الموسيقى والشعر فى ثالوث فنى يستهوى أفئدتهم . ولربما كان الرقص أقدم هذه العناصر وأكثرها انتشارا ، فالحركة لا ريب قد سبقت اللفظ فى التعبير . وفى الجسم إيقاع عضوى يتحرك لنغمات الطبيعة ، على غير وعى منا . وعند الإغريق القدماء لم يكن الرقص

والغناء والموسيقى مجتمعة مقصورة على مواكب النصر أو ولائم المرح ، بل كانت تكون العناصر الأساسية فى التمثيل المسرحى أيضاً . وهم لم يعرفوا تمثيلا يقوم على الحوار والحركة المسرحية فحسب ، فكل مسرحياتهم بتخللها الرقص والموسيقى . وإلى جوار الممثلين تجد دائما فرقة المغنين وعلى رأسها عازف الناى . ومن كبار مؤلفيهم كسوفوكليس من كان يجيد الرقص والعزف ويشترك فيهما اشتراكا فعلياً . ولقد كان ذلك من مواضع فخارهم ، فتلك فنون كانت تشارك فيها آلهتهم ذاتها ، ولكم من مرة رأس الإله هرميس أو الإله أبوللون بأعلى الأولمب وفى محضر كبير الآلهة زوس جوقات تعزف وترقص لتطرب الآلهة . ولقد جعلوا الرقص ربة ترعاه كما جعلوا للموسيقى والشعر ربات . وليس من شك فى أن إقبال الإغريق على الحياة ومحبتهم لها وإمعانهم فيها قد فجر فى نفوسهم ينابيع الابتكار والخلق . وليس من شك كذلك فى أن عبادتهم للجمال وحرصهم على التناغم والانسجام قد أحيا فى نفوسهم معانى البطولة ومثل الأخلاق ومن البين أن أهم صفات العمل الأخلاق هو جماله المشرق . .

ولقد رأت العصور الحديثة نهضة رائعة فى فن الرقص بفضل « الباليه » الروسية والسويدية ، وكان للفنان الكبير جاك دالكروز فضل إثراء فن الإيقاع وتحميله أنواعا من التعبير الإنسانى العميق . ولكم طرب الأوربيون لرقص نيجنسكى وكارسافينا وإيزادورا دونكان ولوى فولر وباڤلوفا وأرجنتينا . واستهوى الرقص ألباب كبار رجال الفن والأدب . ولقد كانت ايزادورا دونكان تلهب حماسة لفن النحات الكبير رودان ، وكيف كان رودان يعجب برشاقة الحركة وجمالها عند تلك الراقصة الروحية الكبيرة .

ومنذ سنين قليلة كتب الشاعر الفرنسى الشهير بول فاليرى حوارا رائعا عن الرقص ، وفيه يقيم توازنا متصلا بين حركات الراقص وحركات المفكر الذهنية ، ولفهم هذه العلاقة دعنا ننصت إلى فقرة رائعة من مذكرات دونكان : « لقد أنفقت أياما وليالى كاملة فى « الأتيليه » لأبحث عن رقص يستطيع بحركات الجسم أن يعبر عن الروح تعبيرا إلهيا . ولساعات طويلة كنت أقف ساكنة جامعة يدى إلى صدرى ووالدتى ذاهلة من موقفى هذا ، ولكننى امهيت بأن اكتشفت الدافع الأساسي لكل حركة ، والبؤرة القوية التى تنعقد فيها وحدة الأوضاع .

ومدرسة الرقص التقليدية تلقن تلاميذها أن المركز الأساسى للحركة قائم وسط الظهر عند نهاية العمود الفقرى من أسفل ، ومن هذا المركز تنطلق حركات الأذرع والأرجل والجذع حرة . ولكنها عند ئذ لن تكون غير حرية عرائس من الخشب ، ولن ينتج عن رقص كهذا غير حركات آلية مصطنعة غير جديرة بالروح . والذى كنت أبحث عنه لم يكن مصدر هذا النوع من الحركات ، بل مصدر حركات النفس التى تشيع فى الجسد وقد امتلأ ضوءا فتعكس فيه رؤية مشرقة . وبعد أشهر طويلة من الجهد المتصل ركزت فيها اهتمامى فى هذه البؤرة الموحدة لاحظت أننى عندما أنصت إلى الموسيقى تنساب إلىّ أشعة وموجات . تجرى فى فيض متلاحق نحو منبع الضياء فى نفسى حيث تنعكس الرؤية المشرقة . ولم يكن هذا المنبع مرآة نفسى بل مرآة روحى وبفضل إشراق تلك الرؤية كنت أستطيع أن أعبر عن الموجات الموسيقية بحركات راقصة » . ولا غرابة فى ذلك فقد ولدت ايزادورا الأمريكية الأصل على شواطىء البحار واعترفت بأن فكرة الرقص لم تأتها إلا من مشاهدة أمواج البحر ، وكان أول رقص لها على إيقاع ذلك الموج . وما من شك فى أن للنفوس البشرية إيقاعا يتناغم إيقاع الطبيعة . ولقد قالت تلك الأديبة البارعة « إن الرقص كان موجوداً فى نفسها ولكنه نائم فأيقظته »

وما أريد أن أختتم هذا المقال دون أن أذكر أحد أساتذتى الفرنسيين وهو لويس سيشان ، وقد كان رجلا جادا على رقة نفسه ، رجلا حى القلب حى الضمير ، وقد تعلقت بتعاليمه فبحثت عن مؤلفاته ، وإذا من بينها كتاب قيم عن الرقص عند الإغريق القدماء ، فدهشت لأستاذ فى الجامعة يكتب عن الرقص ، وكنت لا أزال حديث عهد بالشرق وأحكامه ، ولكننى لم أكد أتناول الكتاب حتى وجدته قد صدره فى أول صفحة بثلاث كلمات لإفلاطون قالها الفيلسوف عن الشعر ، وأبى أستاذنا إلا أن يطلقها على الرقص ، وهى قوله « شىء خفيف مجنّح مقدس »

محمد منصور
المحامى